

روابط الطبيعة والتاريخ في وادى النيل

حديث الوحدة في وادى النيل حديث يمكن أن يطول ، دون أن يمل الكتابة فيه الكاتبون ، أو أن يمل القراءة فيه القارئون . وهو مما يمكن أن يتناوله الباحثون من نواح وجوانب متعددة ، منها الناحية القومية الخالصة ، ومنها الناحية السياسية العامة ؛ ثم منها الناحية الدراسية التى تبحث عن الوحدة فتردها إلى أصولها فى البيئة وفى التاريخ ، وتكشف عن مقوماتها فى الطبيعة وفى حياة الناس . وقد تناول الوحدة فى المدة الأخيرة كثير من الكتاب فى الصحف والمجلات ، وفى بعض الكتب والنشرات ؛ وعمد هؤلاء الكتاب فى أغلب الأحوال إلى استعراض الوحدة ومظاهرها العامة أو إلى إبراز ضرورتها والحاجة إليها بالنسبة لأهل وادى النيل فى الجنوب وفى الشمال . ولكن هناك ناحية تستحق البحث والتمحيص وتستأهل الدراسة والعرض ؛ تلك التى تمس الوحدة من حيث أساسها الطبيعى الذى ترتكن إليه ، ومن حيث طابعها التاريخى الذى تتسم به . فالوحدة فى وادى النيل أمر طبيعى ، قضت به ظروف البيئة منذ بدأ الانسان يستقر على جوانب النيل ؛ وهى إلى جانب ذلك قد سارت مع الزمن ، وخلدت روحها خلود التاريخ ؛ وما ذلك كله إلا لأنها من نتاج بيئة فرضت على جماعات البشر أن تعيش متحدة على ضفاف النيل ، وأن تعمل متكافئة متساندة متكاملة ، وأن تستجيب لدوافع البيئة فى الوحدة على نحو لا نظير لثله فى أى إقليم آخر من أقاليم الأرض . ولعلنا أن نستطيع فى هذا المقال أن نلم بطرف أو أطراف قليلة من مقومات هذه البيئة النيلية ، ومن مظاهر ماترتب عليها من وحدة بقيت لأرض النيل على مر العصور ، وستبقى — إن صدقت فإساسة العلم ، وهى صادقة لامحالة — ما عاشت سلالات البشر على ضفاف النيل^(١) .

(١) للكاتب مقال آخر تناول فيه وحدة وادى النيل من جوانب أخرى غير ما يتناوله اليوم . أنظر « الكاتب المصرى » فبراير ١٩٤٦ .

وقد ينبغى أن نبدأ حديث الوحدة ونشأتها واستمرارها في وادى النيل بأن نعرض لبعض المصطلحات والتعريفات الجغرافية التى جرت بها أقلام بعض الكتاب فى غير كفاية من الدقة ، والتى ترتب على عدم العناية بتكليفها وتحديد دلالاتها غير قليل من سوء الفهم . . . فالكتاب كثيراً ما يخلطون بين لفظى « حوض النيل » و « وادى النيل » ، على حين يفرق الجغرافيون بينهما تفريقاً ظاهراً ؛ فهم يقصدون بالحوض مجموعة الأراضي التى تغذى النهر بمياه الأمطار التى تسقط عليها ، وتلك التى يغذيها النهر بمياهه الجارية . وإذا طبقت هذه القاعدة على نهر النيل فإن حوضه يشمل الحبشة وهضبة البحيرات ، وهما تغذيانه بمياه الأمطار ، كما تشمل السودان ومصر ، وهما لا تغذيانه إلا بقدر محدود ولكنهما تتغذيان بمائه وتعتمدان عليه . أما وادى النيل فيقصد به ، فى عرف الجغرافيين ، تلك الجهات التى ترتبط فيها حياة السكان ارتباطاً مباشراً وقويا بل حيويًا بمياه النهر ؛ ويتخذ الارتباط صوراً وأشكالاً متباينة ؛ فقد يتمثل فى أن السكان يرتوون بمياه النهر ويسقون منه مزارعهم لانعدام المطر أو قلة كفايته فى فصل من السنة أو طوال العام ؛ وقد يتمثل فى اعتماد السكان ، إلى حد قريب أو بعيد ، على صيد الأسماك وحيوان الماء من مجرى النهر ؛ كما قد يتمثل فى استخدام النهر كطريق للملاحة وشريان للاتصال ، إلى غير ذلك من مصالح الحياة وحاجاتها المباشرة . وإذا نحن طبقنا هذه القاعدة على نهر النيل وجدنا الحبشة تخرج من واديه وإن دخلت فى حوضه . فأهالى الحبشة لا يعتمدون على النهر فى الاستقاء أو فى الرى أو صيد النهر أو الملاحة ؛ وإنما تتجمع جداول النهر وتجرى رواقده فوق أرض الحبشة دون أن تمس حياة السكان فى شئٍ ظاهر ، والمياه تنحدر فيها سريعة وتجرى متدفقة فى فصل الأمطار ، ثم تكاد ألا يكون بها ماء فى فصل الجفاف . ولو أن تلك الرواقد العليا انعدمت أو لم توجد فى الحبشة إطلاقاً ما تغير مجرى الحياة كثيراً فى تلك البلاد . وغاية ما حدث أن جريان الرواقد الحبشية قد زاد من قيمة تلك الهضبة بالنسبة لبلاد أخرى تقع داخل نطاق « وادى النيل » . وكذلك الحال فى الهضبة الاستوائية وإن اختلفت عن الحبشة بعض الشئ . ففوق الهضبة الاستوائية بحيرات متسعة ، وفيها بعض المجارى الصالحة للملاحة أو لصيد الأسماك ، وفى بعض الجهات تتصل حياة

السكان إلى حد ما بالسطحات المائية والأنهر الجارية ؛ ولكن الحال هنا تختلف اختلافاً ظاهراً عما يكون عليه الارتباط بالنهر في أرض السودان ومصر حيث يعتمد على النهر في الاستقاء في فصل معين من السنة أو طوال العام ، ويعتمد عليه في الري والزراعة إلا في جهات خاصة من السودان الجنوبي في موسم الأمطار ، ويعتمد عليه في صيد النهر في الجهات التي تقل فيها الزراعة كما هي الحال في أراضي منطقة السدود وبحر الجبل والغزال ، كما يعتمد عليه في الملاحاة والاتصال وربط أجزاء الوادى بعضها ببعض في مصر والسودان على حد سواء . ولو أن النيل لم يجرى في مصر والسودان ما قامت حضارة ولا مدينة في سهولها التي يزداد بها الجفاف وتسد الصحارى كلما اتجهنا نحو الشمال . لذلك كله فان لفظ « وادى النيل » إنما يقصد به مصر والسودان مع امتداد يسير نحو الهضبة الاستوائية .

هذا التعريف الجغرافى للفظى الحوض والوادى ضرورى لتحديد ما نقصد « بوحة وادى النيل » . فلقد حاول بعض الناس عن جهالة حيناً وعن قصد سى حيناً آخر أن يشوهوا هذه الوحة ؛ فقالوا إن المطالين بها لا بد أن ينتهى بهم الأمر إلى إدخال الحبشة ضمن نطاقها ؛ وهذا ما لا يوائم الواقع ما دمتا نطالب بوحة الوادى دون وحده الحوض . والحق أن المطالبة بوحة الحوض لا تستقيم ومقتضيات الطبيعة التى وحدت بين مصر والسودان فى الاعتداد على النهر فى حياتهما الماضية وحياتهما الحاضرة والمستقبله ، التى فرقت بين الحبشة وبين ما دونها من أرض الوادى فى أن الحبشة لا تعتمد على النهر وإن كانت تغذيه . ولقد كانت استجابة أبناء الوادى فى مصر والسودان لدوافع الوحة السياسية خلال تاريخهم الطويل مقصورة على واديهم فى نطاقه الطبيعى ، أما الحبشة فقد رد أبناء الوادى إليها الجميل فمدوا إليها يد التجارة والثقافة فى عصر قدماء المصريين أيام كانت الحبشة تؤلف جزءاً من بلاد بنت ، ثم مدوا إليها صلاتهم الروحية فى العهد المسيحى ، عندما انتشرت ثقافة المسيح عليه السلام وديانته من مصر إلى بلاد الحبشة عن طريق البحر الأحمر وربما كانت أيضاً عن طريق وادى النيل والنوبة العليا . ولكن هذه الصلات جميعاً من تجارية وثقافية وروحية بين مصر والنوبة من جهة وبين الحبشة من جهة أخرى لم تنته فى يوم من الأيام إلى صلات سياسية

أو وحدة شعبية أو قومية ؛ لأن الطبيعة لم تكن تستلزم ذلك ، والحاجة لم تكن تمليه لا على « أبناء الوادي » ولا على « أبناء الهضبة » . وقد كانت الحال غير ذلك فيما يختص بالسودان وصلاته بمصر . فما كانت مصر ولا السودان إلا شطرين متكاملين من إقليم واحد ترتبط حياته بنفس المصدر ويستقى روحه من نفس الينبوع . ولذلك فإن الوحدة الحضارية وما تمثلت فيه من صلات تجارية ومادية ، ثم صلات ثقافية وروحية ، كان لا بد أن تنتهي إلى الوحدة السياسية ؛ تلك التي بدأت في مصر وامتدت نحو الجنوب حيناً ، وبدأت في السودان وامتدت نحو الشمال حيناً آخر . وما دام الأمر كذلك فإن وحدة وادي النيل في العصر التاريخي ، وكذلك وحدته في هذا العصر الذي نعيش فيه ، إنما يقصد بها تلك الوحدة الطبيعية والدائمة بين شطري الوادي في الشمال والجنوب ؛ وهي وحدة تقوم على المشاركة الطبيعية في مصدر الحياة ، وتستند إلى هذا الوادي العظيم ونهره الذي لا يمكن أن تدب حياة أو موت في أحد شطريه إلا سرت مع مياهه إلى الشطر الآخر . وهناك مغالطة أخرى جرت بها بعض الأقلام في الآونة الأخيرة ؛ فكتب بعض المغرضين أننا إذا طالبنا بالوحدة في وادي النيل فأنما ينبغي أن نطالب بها أيضاً في أحواض بعض الأنهر الأخرى ، ومنها الدانوب على سبيل المثال . ولكن القياس هنا مع الفارق الكبير جداً ، حتى بالنسبة لمن يقنعون من الجغرافيا بالبساط أو بالقشور . فليس في حوض الدانوب كله إقليم يعتمد على مياه النهر في ربي النبات والزراعة إلى أي حد ملحوظ ؛ وماء الدانوب لا يبعث الحياة في جوف بادية ولا ينفخ الروح في قلب فلاة كما يفعل ماء النيل ؛ بل إن ماء الدانوب لا يصلح حتى لمجرد الاستقاء في حالته الطبيعية كما يصلح ماء النيل ؛ وليس لنهر الدانوب من الناحية الجغرافية الخالصة « واد » حتى يمكن أن نتحدث فيه عن الوحدة . ولئن كانت مياهه تستخدم في الملاحة فما ذلك لربط أجزائه بعضها ببعض بقدر ما هو لاستخدام النهر كطريق للوصول من داخلية القارة إلى البحر الأسود . وفوق ذلك كله فإن حوض الدانوب ينقسم من الوجهة الطبيعية إلى ثلاثة أجزاء على الأقل ؛ فقسمه الأعلى جبلي له حياته الخاصة وتاريخه الخاص الذي يتصل بقلب أوروبا الجبلي ؛ وقسمه الأوسط حوض قائم بذاته يقال له حوض الحجر ، وهو حوض كان في يوم من

الأيام يمتلئ كله بالماء ، ويؤلف بحيرة كبيرة ملائمتها الرواسب المتدفقة من جهات مختلفة ، وتحيط بالحوض الجبال والمرتفعات من جميع الجهات تقريباً ماعداً بعض النافذ . وقد كان لهذا الحوض تاريخه الخاص وقوامه المستقل من حيث الطبيعة ومن حيث السكان والسلالات التي تعيش فيه ؛ بل إنه لا يزال إلى اليوم يفصل ما بين صقالبة الجنوب وصقالبة الشمال ، ويفصل ما بين أهل البلقان وأهل داخلية أوروبا الشرقية والوسطى . ثم إن هذا الحوض ينتهى من الشرق بما يعرف بالباب الحديدى ، وهو خانق طبيعى يفصل ما بين الدانوب الأوسط وسهول رومانيا حيث يجرى الدانوب الأسفل فى مناطق تختلف فى حياتها وتاريخها وسكانها عن حوض البحر إلى أبعد الحدود ؛ وهذا هو القسم الثالث فى حوض الدانوب . فهذه الحالة التى نشاهدها فى نهر الدانوب تكشف لنا كيف تختلف الطبيعة ويتغير السكان ويتميز التاريخ وتباين السلالات وتتنافر الثقافات ، ولا تأتلف المصالح ولا الغايات إلا فيما يتصل باستخدام النهر كوسيلة للمواصلات والنفوذ إلى بحر مغلق تقريباً كالبحر الأسود . وتلك حال لا يمكن أن يسلم جغرافى ، ولا حتى دارس عادى منصف ، بأنها تشبه من قريب أو بعيد ما نشاهده فى وادى النيل .

من هذه التعاريف والمقارنات نخرج بأننا إذ نتحدث عن الوحدة فى وادى النيل فإما نتحدث عن وحدة طبيعية ، قضت بها ظروف البيئة ذاتها ، ولاسبيل إلى جحودها أو المكابرة فيها ؛ وإذا نحن حاولنا ذلك فلن نغير من الواقع شيئاً ولن ننال الحقيقة بشئ . فالله الذى خلق فأبدع قد رتب الأمور على أن يبنى بعضها على بعض ، وأجرى النيل على أن تتصل فيه أجزاء الوادى بعضها ببعض . وليس للإنسان إلا أن يسعى فى ربوع هذه الوحدة القائمة ، والتي يشاء الله ويأبى إلا أن تكون دائمة مادام نهر النيل .

وفى أرض وادى النيل ، أو فى أجزائه السفلى على الأقل ، بدأت جماعات البشر — لأول مرة فى تاريخ الانسانية — تتعلم كيف تعيش متحدة ، وكيف تعمل متكافلة . فهذا النهر العظيم كان يأتي بالفيضان فى كل سنة ، فيغمر الأرض ويعدها للزراعة . ولكن الاستفادة من المياه فى الرى كانت لا تتم ، ولا يمكن أن تتيسر ، إلا إذا ضبط الجريان ، وقسم الوادى إلى حياض تحدها الجسور ، وتجرى بينها الترع والقنوات ، تحمل الماء من النهر إلى الحوض ، ثم تعود فترده

من الحوض إلى النهر بعد أن يكون قد أرسب ما فيه من طمي يفدى تربة الحوض ويعدها للزراعة . وهذا العمل الهندسى كان يقتضى في حد ذاته أن توحد جهود الجباة وأن تنظم ، حتى يمكن التحكم في مياه النهر وتسخيرها في صالح المجتمع . وبذلك فإن نظام الزراعة الذى بدأ في مصر قبل أن يزرع حجر التاريخ قد علم الناس الوحدة والتضامن الاجتماعى ، كما علمهم حسن النظام وحب التكافل ، وفوق ذلك فإن فيضان النهر نفسه كان مصدر خطر مشترك بالنسبة للسكان جميعاً سواء منهم من يعملون في الزراعة ومن يشتغلون بغيرها من حرف الحياة . فتضافرت جموعهم ونظمت حشودهم واتحدت سواعدهم في إقامة الجسور الكبرى على ضفاف النهر ، وفي حراستها إبان ارتفاع مياهه ، ثم في إقامة كومات التراب العالية لتقام عليها القرى فوق مستوى الفيضان . وبذلك كله كان وادى النيل الأدنى مدرسة طبيعية هائلة تعلم فيها الانسان أن يعيش متكافئاً مع أخيه الانسان ، وتعلم كيف يخدم الجباة ويستجيب لدواع النظام فيها ؛ فنشأت الحكومات محلية أولاً ، ثم نشأت إقليمية في الوجهين القبلى والبحرى بعد ذلك ، ثم اتحد الوجهان في مرحلة لاحقة ؛ حتى إذا ما تم ذلك سرت روح الوحدة مع وادى النيل ومياه النهر نحو الجنوب ، كما يسرى الدم في العروق والشرايين . وتخطت الوحدة إقليم النوبة الشمالية ، وهو إقليم صعوبة يضيئ فيه النهر ولا تيسر الزراعة والاستقرار ، حتى بلغت إقليم دنقلا فاستقرت فيه استقرارها في مصر ذاتها سواء بسواء . فظهرت هناك مدينة لم يكن غريباً ولا مستغرباً أن تشبه المدينة المصرية أو المدينة النيلية الشمالية في كثير جداً من الأشياء ؛ لأنها كانت مثلها من ثمار ذلك النهر العظيم . وامتدت اتصالات أبناء الوادى من مصر في أول الأمر ، ثم من مصر ودنقلا بعد ذلك ، حتى شملت الوادى في وسط السودان وجنوبه ، وانتشرت بعض معالم الحضارة والمدنية الشمالية إلى أطراف الجنوب .

ومع ذلك فلم يكن عهد الفراغنة أول عهد اتصلت فيه روابط الحضارة والتجارة والمدنية والثقافة بين أدنى النيل وأعله . وإنما سبق ذلك عهد طويل يعرف بعصر ما قبل التاريخ كانت الحضارة فيه لا تزال في دور التكوين . ويقال إن معالم كثيرة من مدينة مصر الأولى أتت في الأصل من ناحية الجنوب مع هجرات القبائل الأولى من ذلك الاتجاه ؛ كما أن مصر ردت دينها -

إن صح أن يعتبر ذلك ديناً — فنفتخت من روحها وأنفذت كثيراً من معالم حضارتها السابقة للتاريخ حتى بلغت أعلى النيل في السودان الجنوبي . ولعل هذا أن يكون من وراء ما نعرف اليوم من تشابه غريب بين نظام القبائل وأحكامها ومعتقداتها وعاداتها ، بل فنها وموسيقاها ، في بعض جهات النيل الأبيض وبحر الجبل والغزال بل الهضبة الاستوائية الشرقية ، وبين ما كان معروفاً في مصر قبل أن يطلع التاريخ ، بل بعض ما كان معروفاً من مصر في المراحل الأولى من العهد التاريخي .

ولقد استمر هذا الاتصال المتبادل بين مصر والسودان أو بين شطري الوادي خلال أعصر التاريخ . وكان في بعض الأحيان يقوم على أساس العطاء من جانب مصر والتلقى من جانب السودان ؛ كما كان يقوم أحياناً أخرى على عكس ذلك ، فتعلو يد الجنوب ويفيض على الشمال من خيره وبركته ويفي عليه من قوته ووحدته . ولعله لا ينبغي لنا أن نجاوز العهد القديم والتاريخ القديم دون أن نشير إلى ظاهرة من تلك الظواهر المباركة التي تعلم فيها الجنوب عن الشمال ثم فاق الأخ المتعلم أخاه المعلم ، فوعى الدرس في وقت نسيه فيه ابن الشمال ، واستجاب للوحدة فخرج أميره بفنحي ففتح مصر حتى أقصى الشمال ؛ ولم يقابله الشعب في الشطر الشمالي للوادي مقابلة الغازي ، وإنما قابله مقابلة المحرر من ربة غلبة أجنبية أو شبه أجنبية ، والمنقذ من الخلال داخلي . وفي أعقاب ذلك جاءت الأسرة الخامسة والعشرون وملوكها من دنقلا ؛ وقد حكموا الوادي في الجنوب والشمال . فان دل ذلك على شيء فعلي أن الوحدة في العهد القديم لم تقم بالضرورة على أساس الغلبة من جانب مصر ، وإنما كان الحاكم يأتي من أي إقليم تتركز فيه القوة ؛ ولم يجاوز توحيد دنقلا مع الشمال ما حدث قبل ذلك من توحيد الدلتا مع الصعيد . ولا يمكن أن يقال عن نفوذ قوات الوحدة من الجنوب إلى الشمال أو من الشمال إلى الجنوب في أقاليم وطن كبير واحد ، إنها قوات فتح وغزو . وما يصدق على عهد الأسرة الخامسة والعشرين يصدق على غيره من العهود التي حاول فيها أبناء شطر من الوادي أن يمدوا وحدتهم إلى الشطر الآخر . وقد لا يزيد ما حدث من انتقال قوات الوحدة في داخل نطاق هذا الوطن النيل الكبير بين مصر والسودان على ما حدث من جهاد الموحدون في أقطار وأوطان كثيرة من العالم

القديم ، وما تكرر مثله إبان توحيد كثير من الأمم في عهدنا الذى نعيش فيه . ومع ذلك فليس لمؤرخ أن يقول عن تلك الحركات المحلية والقومية إنها حركات فتح وغزو وعدوان .

وإذا نحن انتقلنا من العهد الفرعونى وما سبقه إلى العهود اللاحقة لمسنا آثار جهود أبناء الوادى فى الوصل بين شطريه بروابط الثقافة والمدنية والحضارة مادية ومعنوية . فى العهد المسيحى مثلاً تلتقت مصر ديانة المسيح عليه السلام من الشرق ، ولكنها عادت فنشرتها نحو الجنوب . وما كانت تملك بحكم الطبيعة أن تجسب لنفسها هذا النور الجديد من الفكر الدينى ؛ بل انتقلت المسيحية مع ماء النهر حتى استقرت فى إقليم دنقلا ومروى ؛ وانتشرت من النوبة فى اتجاه إرتريا ، ثم مع النيل الأزرق فى اتجاه سنار . واستمرت المسيحية هناك إلى أن جاء الاسلام ، بل حتى بعد انتشار الدين الجديد . ويقال إن الكنيسة النوبية الجنوبية بقيت على شئ من الكيان إلى القرن الخامس عشر الميلادى .

ومقدم الاسلام ذاته وانتشار العرب إلى شمال السودان ووسطه ، وتعميرهم تلك السهول المكشوفة ، إنما تقوم شاهداً آخر على ما بين أجزاء وادى النيل من صلة تاريخية وروحية مكينة . فالعرب لم يعبروا البحر الأحمر مباشرة إلى السودان ؛ والدين الجديد لم يبلغ السودان من الجزيرة العربية رأساً ، كما حدث فى حالة بعض الأقطار الأخرى . وإنما دارت قبائل العرب حول البحر الأحمر إلى برزخ السويس ، وبلغت مصر واستقرت بعض الوقت على جوانب الوادى ؛ ثم انتقلت نحو الجنوب وهاجرت على طول الوادى ؛ وكان ذلك حوالى القرن الثانى عشر الميلادى وما يليه . وبعد أن بلغ العرب أرض دنقلا انتشروا فى اتجاهات ثلاثة ؛ فذهب فريق منهم نحو شرق السودان ومنطقة كسلا ، وذهب فريق آخر نحو كردفان ودارفور وما وراءهما إلى منطقة وادى وتشاد ، واندفع فريق ثالث نحو أرض الجزيرة وبلاد الفنج . ولكن الشئ المهم أن مصر كانت طريق الثقافة والعمران إلى السودان ، وأن هؤلاء العرب الذين صبغوا السودان بصبغتهم العربية الحاضرة إنما أتوا عن طريق مصر . ولم يكن فى ذلك شئ من الغرابة ؛ فقد قضت الطبيعة منذ البداية أن يشارك السودان مصر فى كل شئ حتى فى تلقى العناصر الجنسية وتلقى الثقافة والنور من الخارج . ومصر لم تكن لتستطيع أن تجسب عن السودان ما تملك أو

ما تستعير ؛ فهو منها وهي منه ، وهما جميعاً من النيل الذى يصل ولا يقطع ويربط ولا يحل ، ويقضى بأن يسير التاريخ في الشمال وفي الجنوب على نهج موحد لا سبيل معه إلى انفراد ولا إلى انفصال .

ومع ذلك فقد يسائل القارىء : ولماذا وقفت موجة العرب ولم ينتشر الاسلام ليغمر السودان الجنوبي بنوره ، ولو عن طريق الاحتكاك الثقافي إذا لم يكن التوسع الجنسي سهلاً وميسوراً ؟ والجواب على ذلك عند أهل التاريخ ؛ فانتشار السكان انتشاراً طبيعياً لا يقوم على الغزو والفتح القاهر يتطلب قروناً طويلة ؛ كما أن انتشار الثقافة ذاتها يتطلب مثابرة ومداومة ودفعاً دائماً وتغذية دائمة ؛ ولكن موجة التوسع العربي وانتشار الاسلام عن طريق التجارة والاتصال الثقافي أصيبت بصدمة عنيفة في الشرق الأدنى عامة وفي مصر خاصة عندما دخلت جميعاً تحت سلطان الدولة العثمانية ، فحل الأتراك محل العرب ، ودخل الشرق في ظلمة شاملة وخبا نور المدينة بل كاد مشعل الثقافة أن ينطفئ ، فانقطعت حركة العرب من أساسها وتوقف سيل الاسلام في منبعه ، ودخل السودان كما دخلت مصر في دور مظلم لم يستطع معه تيار المدينة والوحدة أن يتابع سيره في السودان إلى حوض الجبل والغزال ؛ واستمرت الحال على ذلك حتى جاء العهد الحديث .

وفي هذا العهد تجددت الحياة في وادي النيل ، وجاء مجد على فبعث الوحدة والنهضة في أرض مصر التي خرجت إلى المدينة وأخذت بأسبابها في سرعة عجيبة . ولكن الشئ الطريف أن هذه النهضة المصرية لم تستطع ، وما كان لها أن تستطيع ، أن تنطوى على نفسها في أدنى الأرض . فطبيعة الأشياء كانت تقضى دواماً بأن تسير الحياة مع النهر . وما يصيب مصر من نهضة لا بد أن يمتد إلى السودان . فذهب مجد على وذهبت معه مصر تتلمس تلك الوحدة الشاملة التي رسم الله حدودها مع حدود « وادي النيل » . ولم يسر أبناء الشمال مع النيل الأزرق والعبارة إلى الحبشة ، وإنما ساروا مع النيل الأبيض إلى حوض الجبل والغزال ومشارف الهضبة الاستوائية ، وذلك كله طريق الحق الذي رسمته يد الله حين قضت أن ترتبط أجزاء وادي النيل ، وأن تبقى الوحدة السياسية في حدود « الوادي » لا تتعداه إلى « الحوض » بمعناه الأوسع الأعم . والشئ الطريف أيضاً أن السودان قبل عهد مجد على كانت تعمره قبائل كثيرة متنافرة

متخاصمة ، لا تربطها حكومة مركزية موحدة ، ولا يسود أراضيها نظام إدارى موحد أو متقارب ؛ وإنما كان الانحلال السياسى قد أصاب السودان إلى حد أبعد مما أصاب مصر ذاتها أيام المالك ؛ ولم تكن هناك حكومة ذات حجم معقول فى أى جزء من أجزائه غير أرض الفنج على النيل الأزرق وبعض جهات محدودة فى الشرق وفى الغرب . ومع ذلك كله فسرعان ما استجاب السودان لدافع الوحدة وداعبها ، كما استجابت مصر من قبل ، وانتهى الأمر بأن اتحدت أرض النيل مما أشاع النهضة فى أرجائها وأعاد للوادى بعض مجده التليد . وعندما أتم محمد على وخلفاؤه توحيد ربوع السودان مع مصر صار التاج رباط الوحدة المقبسة بين شطرى هذا الوطن العظيم ؛ بل صار رمز الوحدة ورمز النهضة فى وادى النيل من أقصاه إلى أقصاه . ومع ذلك فقد شاءت الأقدار أن يعيد التاريخ نفسه ؛ فبعد أن وصل أبناء النيل إلى مشارف خط الاستواء ، امتدت يد الشر والاستعمار إلى الشرق الأدنى من جديد ، وسقطت مصر فريسة فى يد من لا يرحم ولا يدع رحمة الله تهبط بالخير على الأرض أو تجرى بالقربى بين الناس ؛ وانقطع جبل الحياة بين الشمال والجنوب ، وخبأ نور المدنية ، وكاد مشعل الثقافة ينطفئ من جديد ؛ فكانت القطيعة بين مصر والسودان ، ودخل الجنوب فى عهد من الفوضى والتقاطع يسأل عنهما أولئك الذين تسببوا فى القطيعة وشطروا الوادى شطرين ، ثم حاولوا أن يربطوا بينهما ربطاً مظهرياً لا يمس الجواهر كما ينبغى أن يمس ، ولا يصل الحياة كما ينبغى أن توصل .

تلك قصة وادى النيل والحياة فى وادى النيل . قصة مهر امر الله ماءه فجرى بين الجنوب والشمال ، وهدى الله أهله فاستجابوا لنعمته فى الخير ولبوا نداه فى الوحدة ؛ وقصة حياة اتصلت فى الشمال منذ أقدم العصور وامتدت إلى الجنوب فأخذت عنه وأعطته واتصلت بينها وبينه أسباب الآخذ وأسباب العطاء فى غير من ولا تقدير ؛ فأخرج الله للناس فى التاريخ أمة وادى النيل ، عريقة كأعرق ما تكون الأمم ، مجيدة كأجد ماتكون الشعوب . وتلتهى العالم عن هذا الوادى السعيد كيف يعيش الانسان متكاملًا مع أخيه الانسان ، وكيف تتضافر الجهود فتجعل من هذا الوطن الأكمل كساعة الله فى أرضه . ولئن كان قد أتى حين ، أو أتت أحيان ، من الدهر انقطع فيها جبل التاريخ

